عزيزتي فاطمة.. عزيزتي فاطيمة

عزيزتي فاطمة..

قرون تفصل بيننا، وما زالت قوتك حاضرة، حتى أنها كانت طوق نجاة ألقيته لفتاة تتشابه معك في الاسم. رغبت في إطلاق القوة الكامنة بداخلها، عبر سيرتك، فلنطلق على الفتاة اسما للتدليل يميزها عنك، فلنقل إنها تدعى "فاطيمة".

تشبهك فاطيمة في الصورة التي طالعتني على جوجل حين بحثت عن بطلة تاريخية تحمل اسم فاطمة، اسم فتاتي الأصلي قبل أن أختار لها اسما للتدليل، جاءني في البحث اسم "لالا فاطمة نسومر". لم أكن أعرف الكثير عنك، فكنت أتعرف عليك بصحبة فاطيمة التي ظننت أن ملامحها تشبه ملامحك. تعرفنا عليك من خلال صورتك المعروفة في نتائج محركات البحث، لكن أنكشف لي فيما بعد، أن تلك الصورة التي استخدمت في أغلب الموضوعات التي كتبت عنك، ليست صورتك في حقيقة الأمر، بل هي صورة لعارضة أزياء. ألتقطت الصورة بعد وفاتك، وإن كانت في نفس القرن الذي عشت فيه. المصور اهتم بتصوير عارضات أجنبيات بأزياء تراثية جزائرية في القرن التاسع عشر، بعضها صور عارية، لكن ما ثبت في الأذهان هي صورة لفتاة مليحة، تشبهها فاطيمة كثيرا، رأى البعض إنها لا تليق بسليلة عائلة صوفية، قبل أن تكوني مناضلة ضد الاحتلال الفرنسي، صورة الفتاة المليحة التي ألتصقت في الأذهان لم تكن عارية، فاستطعت أن أعرضها على تلميذتي فاطيمة ذات الخامسة عشر.

أعذريني، لم أعرفك بعد علي وعلى فاطيمة، أنا إخصائية إجتماعية في مدرسة ثانوية، وفاطيمة طالبة في المدرسة. جاءت مع عمتها كلاجئة، هربا من نيران الحرب في بلدها. فاطيمة فتاة جميلة ومنطوية، لم تكن تتحدث كثيرا، ولا تملك قدراتك البلاغية التي جمعت حولك الرجال والنساء، ولا قوتك التي حالت دون أن تنحدر حكاياتك في اتجاه حكاية فاطيمة، التي سأرويها لك.

رغبت في إشراك تلميذتي الخجولة والحزينة في عرض مدرسي، لم أحب أن أجعلها تجتر حكاياتها عن الحرب في بلادها المنكوبة، حيث ماتت أمها في القصف ثم قطف الموت أخوات فاطيمة عبر رحلة الهروب من الجحيم، ولم أرد أيضًا أن تروي عن منفاها في بلدي ووحدتها بعد سفر والدها إلى بلد أخرى سعيا وراء رزق أوفر. أحببت أن تتمثل شخصية بطولية كي يزول هذا الإنكسار من عينيها، وبحثت عن بطلة أسطورية تحمل نفس اسمك، لتكون سيرتها ملهمة. على كل الأحوال هي لم تعرف أن الصورة ليست بصورتك، لكنها أمتلكت لمعة في عينيها، وقوة وثبات، تجلت في لغة جسدها أثناء العرض. كانت تشبه ما تخيلته عنك، عبر القراءة عن سيرتك، وليس عبر ما رأته في الصورة المزعومة.

عزيزتي فاطيمة..

كانت فاطمة نسومر في نفس عمرك تقريبا، حين تزوجت ابن عمها، لكنها نفرت منه ولم تسمح له بالاقتراب منها، يقولون أنها كسرت محتويات الغرفة كي يبعد عنها، ويقولون أنه أعادها إلى أهلها ومع ذلك رفض أن

يطلقها، لكن المؤكد أن فاطمة ذات السادسة عشر عاما كانت ترى نفسها في مكان آخر، غير تلك الغرفة التي شهدت أول فصول مقاومتها. قاومت الزواج من رجل لا تحبه، كما قاومت جيش الاحتلال. قاومت مجتمعها الذي لم يفهم أن تمتلأ فتاة بالعلم والمقاومة أكثر من امتلائها بالرغبة في تكوين أسرة، حتى اقتنع، كل من عزى قوتها إلى قوى خفية، بامتلاكها ما هو أكبر من إي قوى سفلية. كل من خاف من قدرة تلك الفتاة على المقاومة، كل من تبرك بطاقتها الروحانية، كل من رأى الإيمان بذاتها ووطنها في عينيها، آمن بها، وسار وراءها، وقاموا الاستعمار الفرنسي تحت قيادتها. أنت أيضًا يا فاطيمة قاومت، حين رفضت محاولات منعك من استكمال دراستك، من الزواج المبكر حتى يتخلص أهلك من مسئوليتك، منذ ظهرت لمعة عينيك، ونشاطك الملحوظ، وإصرارك على الإنغماس في الحياة والتعلم، برفقتي وبرفقة زملائك، لم تستوعب عمتك شغف المعرفة والحياة الذي دب في أوصالك، واستدعت عمك، قلتي أن كل العرسان الذين أتى بهم عمك لحل مشكلة ابنة أخيه المراهقة كانوا كبارا في السن، وكنت تهربين منهم وتأتين إلي، وكنت أحاول ان أحميك منهم، لكن عمك تعهد بتركك لاستكمال تعليمك فتركتك لتعودي إلى بيت عمتك، في ليلة رحيلك، جلست تحت الشجرة الباسقة أمام بيتي، تترنمين بأغنية من اغاني طفولتك.

وصلت إلى نفس النقطة التي كنا نتفرق عندها كل يوم. كنا نسير معا من المدرسة إلى البيت تتجهين أنت نحو الحي الشعبي، بينما أكمل أنا طريقي في إتجاه حي أكثر رقيًا، كنت تقولين أن بيتي يشبه بيتك في بلدك، قبل أن يحيله القصف إلى تراب، وأن الشجرة الوحيدة أمام باب بيتي تشبه شجرة زرعتها أمك حين كانت طفلة، وظلت باسقة وسط الحطام، كنت تحكي عن الشجرة وأسنانك منفرجة، بابتسامة وادعة، وكأن ذكرى الشجرة أنحت الحزن من عينيك جانبا مع ذكريات الموت والدمار، وصعدت حلما بالعودة حيث شجرة أمك المقدسة، التي لم تمسسها نار الحرب، لكن سريعا ما يحتل عينيك الحزن من جديد.

اليوم اتجه نحو بيتك، بعد تغيبك لعدة أيام، كنت تقولين أنك تقطنين في علبة أسمنتية، لكنك كل ليلة تحلمين بصحراء واسعة وبيوت بسيطة من طابق واحد متباعدة عن بعضها البعض، تشبه بيوت الريف في بلدك، كنت ترين فاطمة نسومر بثوبها الأحمر، تطلع من شرفة بيتها على الرمال الصفراء، كأنها داخل لوحة، وكنت ترينها بين جنودها في غمار المعارك.

في هذا اليوم، لم استطع رؤيتك يا فاطيمة، كان عمك واقفا لي بالمرصاد، ولم يوافق أن أدخل غرفتك، قال إنك مريضة لذلك تغيبت عن المدرسة، قال إنك نائمة وتحتاجين إلى الراحة. وكانت بصيرتي نائمة أيضًا، فلم أصر على لقائك، وغادرت العلبة الأسمنتية.

تذكرتك يومها في حفلة المدرسة الثانوية ترتدين زي فاطمة نسومر الأحمر، الذي جعلها مثل اللهب في صحراء الجزائر وهي تواجه جيش الاحتلال، ويتبعها رجال ونساء القبائل، راهنت يا فاطيمة على امتلاكك قوة تلك المقاتلة الأمازيغية ذات النزعة الصوفية، حين تأملتك يوم الحفل المدرسي على المسرح، تأكدت أنه لا خوف عليك، أنت تدركين ما تريدينه، وستكونين ما تتمنين، ويوما ما ستزرعين شجر لا تمسسه نار مثل شجرة أمك.

عزيزتي فاطمة..

كنت يوم المعركة الفاصلة يا لالا، كلهب مشتعل بثوبك الأحمر، وحين وقعت في يد الأعداء لم يجرؤ الاستعمار على إعدامك، ظللت في سجونهم حتى قتلك مرض عضال في عامك الخامس والثلاثين، يقولون أنهم وضعوا لك سما في الطعام، لكنك على كل الأحوال، صرت أسطورة مهابة، ورمزًا للنضال، سيجد عنك من يبحث على محرك البحث، عشرات الصفحات والمصادر، لالا فاطمة نسومر، وإن كنت هزمت في معركتك الأخيرة، وإن كان الاستعمار استمر على أرضك، فلقد ألهمت من جاء بعدك، واكتمل الطريق نحو الحرية، أما فاطمة الأخرى، التي أطلقنا عليها اسم فاطيمة، ذات الخامسة عشر، فمن يبحث عنها، لن يجد شيئا يذكر، ربما وجد خبرا عن مراهقة عربية جاءت إلى مصر كلاجئة بصحبة عمتها، وسافر أبوها من أجل رزق أوسع، قتلت في بيتها بأحد الأحياء الشعبية، بعد تعذيبها، قام عمها بضربها وأصابها بالكثير من الحروق والسجعات والكدمات، قبل أن تفارق الحياة بين يديه. لم يمهلها فرصة لتتحرر. حرقت أشجار فاطيمة الباسقة قبل أن تزرعها يافاطمة، لعل يأتي من يزرع أشجار أمام بيوت وطنها لا تمسسها نار، فتعشش روحها وأرواح تشبهها بين أغصانها، كما عششت روحك بين أغصان أشجار وطنك منذ قرون مضت.

سمر نور